# الفصل الرابع

# التحدى

# المعجزة

معجزة، والجمع معجزات،والإعجاز مشتق من العجز، والعجز: الضعف أو عدم القدرة، والإعجاز مصدره أعجز: وهو بمعنى الفوت والسبق.

والمعجزة فى اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدى، سالم من المعارضة. وعرفها ابن حمدان بأنها: " هى التحدى ابتداءً، بحيث لا يقدر أحد عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها ".

ومن أعظم دلائل النبوة مايؤتيه الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام من معجزات تخرق العادات، وتعطل نواميس الكون وسننه، ويعجز عن فعلها سائر الناس، وذلك تأييداً لهذا الذى أكرمه الله بالنبوة أو الرسالة، وتكريماً له، وشاهداً وبرهاناً على صدق ما جاء به من البينات والهدى.

ويقول الإمام الجوينى: " لا دليل على صدق النبى غير المعجزة، فإن قيل: هل فى المقدور نصب دليل على صدق النبى غير المعجزة؟ قلنا: ذلك غير ممكن، فإن ما يُقْدَر دليلاً على الصدق لا يخلو، إما أن يكون معتاداً، وإما أن يكون خارقاً للعادة، فإن كان معتاداً يستوى فيه البر والفاجر، فيستحيل كونه دليلاً، وإن كان خارقاً للعادة يجوز تقديره ابتداءً من فعل الله تعالى، فإذا لم يكن بُدٌّ من تعلقه بالدعوى، فهو المعجزة بعينها." [١٣٨]

ولكى تكون المعجزة ملزمة للقوم، فقد ظهرت على يد كل نبى آية من جنس ما برع فيه قومه، ونبغوا فيه واشتهروا به، لأن من يعرف أسرار العلم، ويدرك جزئياته، ثم يرى أن هناك من يستطيع الإتيان بظواهر، خرجت عن قدرة أرباب هذا المجال، يدرك أنه أمام ظاهرة تفوق قوة البشر، ظاهرة لا يستطيع الإتيان بها إلا من كان مُؤَيَّداً، ممن يملك الكون

---

١٣٨ ) الجوينى: الإرشاد صـ ٣٣١.

كله، ويسيطر عليه، ولهذا آمن السحرة، حين رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوه من سحر، لأنهم عرفوا أنهم أمام عمل، لا يقوى عليه إنسان، يقول الله تعالى، مخبراً رسوله عن هذه الحادثة: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[ الشعراء: ٣٨ – ٤٨]

آمن السحرة وصدقوا بأنه رسول من الله، لأنهم أدركوا أن ما قام به ليس سحراً، فهو خارج عن طاقة أى ساحر، ولا يكون ذلك إلا بتأييد من الله، فهو صادق فيما يخبر به عن الله، من أنه رسول، أُرْسِلَ إلى الناس، ليبين لهم طريق الهدى، ولينذرهم إذا هم ضلوا، أو سلكوا طريق الشيطان.

كذلك كانت معجزة عيسى من جنس ما اشتهر به قومه، وهو صناعة الطب، فقد برعوا فيه، وظنوا أنهم عرفوا كل صغيرة وكبيرة فى جسم الإنسان، فجاء عيسى عليه السلام، وأظهر الله على يديه فى هذا المجال، ما أفحمهم وأعجزهم عن الإتيان بمثله، رغم أنهم أساتذة فيه، فكانت ولادته من غير أب معجزة لهم، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

[مريم: ٢٠ – ٢١]

وكان كلامه فى المهد معجزة، يقول تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا

كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ مريم: ٢٧ – ٣٠ ]

كذلك أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله، يقول الله تعالى، فى معرض الإخبار عن هذه المعجزة: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ آل عمران: ٤٧ – ٤٩ ]

ويقول: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴿١١٠﴾ ﴾ [ المائدة: ١١٠ ]

كانت هذه المعجزات حسية، تحدى بها الأنبياء أقوامهم المعاصرين لهم، فلم يتحدوا بها الأجيال اللاحقة، ولم يصدقها كثير ممن لم يرونها، بل سمعوا بها عن طريق الروايات الإخبارية، بل إن عدداً غير قليل ممن رأوها كفروا بها وسموها سحراً.

أما معجزة النبى ﷺ – وهى القرآن الكريم – فهى معنوية، متعددة الجوانب، كانت – ومازالت – تحدياً لكل الأقوام والأجناس؛ فكان التحدى للعرب لغوياً، فهم أهل فصاحة وبيان، فتحداهم أن يأتوا بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨، ثم لما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [ هود: ١٣]

ثم لما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثل سوره:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ البقرة: ٢٣ – ٢٤]

وظل هذا العجز مستمراً لدى كل من يتقن اللغة العربية إلى يومنا هذا، بل التحدى اللغوى قائماً إلى يوم القيامة.

كما أنه يتحدى غير العرب فى مجالات عدة: فى الأخلاق، والتشريع والإعجاز العلمى، وفى كنز الأسرار الذى لا ينفد؛ فنصه يحمل من التصورات العقلية ما يفوق كل تقدم فى المجال العقلى، ومن الأحكام ما يناسب كل عصر، وينسجم مع كل بيئة وقُطْر. ولازال العلماء يكشفون عن هذه الأسرار التى تلبى كل أنظمة الحياة على وجه البسيطة. ومن الأدلة على ذلك ما سنعرضه فى الصفحات التالية من آيات تحمل من المعانى ماينناسب عصرنا، ويتفق مع وقع الحياة التى نعيشها.

# علاقة

# الكنز بالاستثمار

# حق المجتمع فى المال
# بين معنيين

يحتل المال مركزاً رئيسياً فى الحياة البشرية، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم فى حياة المجتمع، إذ يتوقف عليه النشاط الإنسانى فى جميع مجالات الحياة، وبه تدور عجلة تاريخ الأمم، فمن لا ثروة له، فلا تاريخ له، إذ به تقام الحضارات التى يسجلها تاريخ الأمم والشعوب، وعليه تُشَيَّد المدنيات التى يفخر أصحابها بتدوينها فى صفحات تاريخهم، وفى الوقت نفسه فهو مصدر لمعظم المآسى التى تصيب الإنسان، ومصدر كثير من الشقاء الذى يعانى منه الأفراد والجماعات، سواء كان ذلك فى مشقة الحصول عليه، أو فى كثرته كثرة تدفع إلى الفساد والطغيان.

فمن يُحْرَم منه، ويعانى فى سبيل الحصول على قسط منه يقيم أوده، ويحفظ عليه حياته، فهو معذب فى حياته، ومن يحصل على قسط وافر منه عن طريق غير مشروع فقد ظلم نفسه، وذلك بإماتة الروح الإنسانية فى داخله، إذ هو قد سلب الآخرين حقوقهم عن طريق الغش والخداع، وبأسلوب يتنافى مع ما تقتضيه العدالة، وتحتمه الفضيلة على الإنسان. كذلك من ينفقه فى وجوه غير مشروعة، فهو يدمر نفسه، و يعمل على انهيار مجتمعه.

ولهذا ركزت الأديان فى كثير من تعاليمها على تنظيم التعامل مع المال، سواء فى الحصول عليه، أم فى إنفاقه، فجاءت الوصية فى الإسلام بأن يلتزم الإنسان بالأمانة فى التعامل مع الآخرين، فلا يخدع أحداً، ولا يظلمه، سواء أكان بائعاً، أم مشترياً منه، فإن لم يفعل، فسينتظره عقاب أليم فى الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو

﴿ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾

[المطففين: ١ – ٥]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩]

كما توعد من يسيء استخدام المال استخداماً سيئاً بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[التوبة: ٣٤ – ٣٥]

الإسلام دين ودنيا، عبادة وعمل، وتنظيم للحياة للاستمتاع بمحاسنها ووقاية من شرورها وآثامها، وليس المفهوم من هذا التنظيم أن يشرح كل دقائقها، ويبين تفاصيلها وأجزاءها، وإلا كان خاصاً بزمن معين، ولمجتمع بذاته، لأن حياة المجتمعات تتفق فى المبادئ العامة، وتختلف فى التفصيلات والفروع، كلٌّ حسب بيئته، وطبقاً لمقتضيات عصره، فالعصور مختلفة والبيئات متفاوتة، وطبيعة عناصر الحياة متطورة ومتجددة، فلو حدد الإسلام الجزئيات وبيَّن الفروع لكان ذلك منافياً لفلسفة الحياة، ومناقضاً لمتطلباتها المختلفة، وآفاقها المتنوعة، ولصار ذلك حجراً على العقول من أن تمارس قدرتها فى شرح المبادئ العامة التى صاغها الإسلام فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. ومن أمثلة ذلك ما جاء فى آيتى التوبة ٣٤، ٣٥: ذلك أن المفسرين القدامى فسروهما على وجهين:

**الأول**: أن المقصود بالكنز هو عدم زكاة المال، مستدلين على ذلك بالنصوص التالية:

قوله ﷺ: " **ما أُدِّىَ زكاته فليس بكنز، وإن كان باطناً، وما بلغ أن يُزَكّى ولم يُزَكّ، فهو كنز، وإن كان ظاهراً.**[١٣٩]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: " ما أُديت زكاته فليس بكنز. "

وقال ابن عمر: " كل ما أُديت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز، وإن كان فوق الأرض."

وقال جابر: " إذا أخرجت الصدقة من مالك، فقد أذهبت عنه شره، وليس بكنز. "

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ.. ﴾[التوبة: ٣٤]، يريد الذين لا يخرجون زكاة أموالهم.

خاطب الإسلام جميع الناس على اختلاف قدراتهم العقلية، وتنوع أفكارهم الاجتماعية، فكان صالحاً للخلق أجمعين على هذه الأرض، مهما اختلفت ثقافاتهم، وتنوعت نظم حياتهم، وتباينت عاداتهم وتقاليدهم، لأنه من العليم القدير، العليم بقدرات خلقه الفكرية، القدير على صياغة الوحى بأسلوب يفهمه كل إنسان على وجه البسيطة، فجاءت آيات القرآن الكريم على نحو صالح لكل الثقافات والبيئات، فيفهمها ويفسرها، ويستنتج منها أحكاماً تلائم عصره، وتتوافق مع متطلبات بيئته، وذلك هو قمة الإعجاز، الذى انفرد به القرآن الكريم، فقد فسر علماء العصر الإسلامى الأول آيتى التوبة ٣٤، ٣٥ على نحو يلائم عصرهم، فذهبوا إلى أن المقصود بالكنز، هو المال الذى لم تُؤَدَّ

---

١٣٩ ) البخارى جـ ٢ صـ ٥٠٩

زكاته، أو المال الزائد عن حاجة مالكه، لقول العلماء السابقين: إن الله خلق الأموال ليتوسل بها إلى دفع الحاجات، فإذا حصل للإنسان قدر ما يدفع حاجته، ثم جمع الأموال الزائدة عليه، فهو لا ينتفع بها لكونها زائدة على قدر حاجته، ومنعها من الغير الذى يمكنه أن يدفع حاجته بها، فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعاً من ظهور حكمته، ومانعاً من وصول إحسانه إلى عبيده.

ومما لاشك فيه أن هذا القول مردود بعموم قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [ البقرة: ٢٨٦ ]، فإن ذلك يدل على أن ما اكتسبه الإنسان فهو حقه، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ محمد: ٣٦ ]، وقوله ﷺ: " **كل امرئ أحق بكسبه** "، بل إنه منع من أراد الوصية بماله كله من ذلك، وأقره على الوصية بثلث ماله قائلاً له: " **والثلث كثير !!!**" [١٤٠]

أما علماء العصر الحديث فلهم رأى آخر، ألا وهو: أن الضمير فى "**ينفقونها**" عائد على جملة الذهب والفضة فى قوله تعالى: " **والذين يكنزون الذهب والفضة** " التى يملكها الإنسان، إذ لا يجوز عود الضمير على بعض الذهب والفضة، وهو الجزء المستحق للفقراء كـــ " زكاة "، ولم يرد فى الكتاب والسنة ما يوجب على المسلم أن ينفق كل ماله، بل الذى ورد عكس ذلك، فقد روى عن سعد بن مالك عن أبيه قال: عادنى النبى ﷺ عام حجه من مرض — أشفيت منه — أشرفت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله ! بلغ بى الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة واحدة، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: " **لا** ! " قلت: فأتصدق بشطره؟ قال: " **لا!** " قال: " **الثلث ياسعد، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس...** " [١٤١]

---

١٤٠) صحيح البخارى: جـــ ٣ صـــ ١٠٠٦ رقم ٢٥٩١

١٤١) صحيح البخارى: جـــ ٣ صـــ ٣٧٢

كذلك لايتناسب العقاب الذى ورد فى الآية: "...**يوم يحمى عليها فى نار جهنم**....الخ " مع الإثم الذى يرتكبه من لم يؤد زكاة ماله، فلم يرد ذلك صريحاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولا فيما استنتجه علماء الفقه الإسلامى منهما من أحكام، وعليه فالعقاب الوارد فى الآية لابد أن يكون عقاباً على إثم يفوق إثم من لم يؤد زكاة ماله، بل لابد أن يكون إثماً عظيماً يتعدى أثره أسرة، أو مجموعة صغيرة من الناس يحتاجون إلى ما يسدون به رمقهم، إثم يترتب عليه انهيار المجتمع، وموت الحياة كلية. هذا هو الإثم الذى يستحق من يرتكبه هذا العقاب الأليم، وهو ما يفهم من الآية، عندما فسر العلماء فى العصر الحديث كلمة "ينفقونها" بـــ "**يستثمرونها**"، إذ حجب المال عن الاستثمار بكنزه، أى بوضعه فى الخزائن دون تركه يعمل فى الحركة الاقتصادية، يشل حركة المجتمع، ويوقف قلبه النابض؛ إذ لو تصورنا — على سبيل المثال — أن كل من يملك مالاً وضعه فى خزائنه، لمات الناس جوعاً، بمن فيهم من يملك المال، لأنه — وهم أيضاً — لن يجدوا ما يأكلونه، إذ لا تكون هناك تجارة، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا أى عمل من أى نوع كان، لأن حياة هذا كله هو المال، ولما كان هذا هو وضع المال وأثره فى حياة الأمة، كان جزاء من يمنعه من تأدية هذه الوظيفة: **أن تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم**، لأن ذنبهم لم يقتصر على حرمان واحد أو اثنين مما يحتاجه فى حياته، بل هو حرمان أمة بأسرها، بل هو سبب فى موتها وهلاكها كلية.

وعليه فيجب على المسلم وجوباً عينياً أن يستثمر ماله فى التنمية، أو يوكل غيره — كالبنوك مثلاً — إن كان لا يقدر على ذلك، فلا يمنع الأمة من الانتفاع بهذا المال، وهذا هو المبدأ العام فى الفقه الإسلامى: " **المال ملكيته خاصة، ومنفعته عامة** "، أى أنه ملك خاص لصاحبه، ولكن الأمة كلها تنتفع به؛

فالعامل — أياً كان عمله — ينتفع به، لأنه هيأ له عملاً يعيش منه، والزارع ينتفع به، لأنه أتاح له الأرض التى يفلحها، والتاجر يجد ما يسد به حاجته وما يلزم أسرته من التجارة فى المنتج: زراعة وصناعة وغيرها من مناحى الإنتاج فى المجتمع، بل إن التقدم العلمى الذى تعود نتائجه بالرخاء وتيسير مناحى الحياة كلها، يقوم على استثمار المال فى البحوث العلمية التى تعمل على اكتشاف ما فى ظواهر الكون من عناصر لتسهيل حركة الحياة.

ولكى ينتفع المسلمون بمالهم يجب استثماره فى الأقطار الإسلامية، فلا يجوز وضعه فى بنوك أجنبية، أو استثماره فى بلد غير إسلامى إلا إذا كان فى ذلك جانب من جوانب منفعة تعود على المسلمين، لأن الاستثمار فى بلاد غير إسلامية هو حرمان المسلمين من حقهم فى الانتفاع بمواردهم الاقتصادية، فبلاد المسلمين فى حاجة ملحة إلى كل درهم للتنمية الاقتصادية؛ إذ نسبة البطالة فى العالم الإسلامى مرتفعة جداً، ومستوى المعيشة منخفض جداً، ووسيلة علاج ذلك هو المزيد من الاستثمارات، فإذا استثمر أصحاب الأموال أموالهم فى بلاد غير إسلامية، استفحلت مشكلة البطالة فى الأقطار الإسلامية، وتدهورت مستويات المعيشة، مما يؤدى إلى ضعف المسلمين وانهيار حياتهم، فلا يستطيعون رد غازٍ، ولا يقوون على حماية بلادهم من الطامعين، بل إنهم لن يكون فى وسعهم حماية عقيدتهم، وعند ذلك يكون العقاب الذى تحدثت عنه الآية: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ التوبة: ٣٥ ] موازياً لما ارتكبه أصحاب الأموال من الإثم فى حق شعوبهم الإسلامية.

فاستخدام المال فى التنمية يرفع مستوى المعيشة، وكثرة الاستثمارات فى

المجتمع عامل مهم فى ازدهار الحياة؛ إذ يحصل الإنسان فى ظل الازدهار الاقتصادى على ما يحتاج إليه فى معيشته، بل قد يصل إلى وفرة فى الغذاء، وسهولة فى الحصول على مسكن ملائم يرتاح فيه مع أسرته، وكساء يضفى عليه السعادة، فترتاح نفسه، ويطمئن قلبه، وذلك هو الأمن والاطمئنان الذى تنشده الأفراد، وتسعى إليه الأمم ليستقر النظام ويسود الأمن فى ربوع المجتمع[١٤٢].

١٤٢ ) راجع كتابنا: " التنوير فى الفكر الإسلامى صـ ١٣٢ – ١٣٧.

# الإسهام فى الحضارة

# واجب دينى

## الحضارة

هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى، وهى تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

وترتكز الحضارة على البحث العلمى والفن التشكيلى بالدرجة الأولى، فالجانب العلمى يتمثل فى الابتكارات التكنولوجية، وعلم الاجتماع، أما الجانب التشكيلى فهو يتمثل فى الفنون المعمارية، والمنحوتات، وبعض الفنون التى تسهم فى الرقى. فلو ركزنا بحثنا على أكبر الحضارات فى العالم، مثل: الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانين عظماء، فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أى حضارة.

وفى اللغة العربية: هى كلمة مشتقة من الفعل: " حَضَرَ "، ويقال: الحضارة هى تشييد القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهى خلاف البدو والبداوة والبادية، وتستخدم اللفظة فى الدلالة على المجتمع المعقد، الذى يعيش أكثر أفراده فى المدن، ويمارسون الزراعة، على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية، التى تنتقل بطبيعتها وتعيش بأساليب لا تربطها ببقعة جغرافية محددة، كالصيد مثلاً. ويعتبر المجتمع الصناعى شكلاً من أشكال الحضارة.

تعتبر لفظة حضارة مثيرة للجدل وقابلة للتأويل، واستخدامها يستحضر قيماً ( سلبية وإيجابية )، كالتفوق والإنسانية، والرفعة، وفى الواقع رأى - ويرى —

العديد من أفراد الحضارات المختلفة أنفسهم أنهم متفوقون ومتميزون عن أفراد الحضارات الأخرى، ويعتبرون أفراد الحضارات الأخرى همجيين ودونيين.

ويذهب البعض إلى اعتبار الحضارة أسلوب معيشة، يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر، يعيشها فى مجتمعه، ولا يقصد من هذا استخدامه إلى أحدث وسائل المعيشة، بل عامله هو كإنسان مع الأشياء المادية والمعنوية التى تدور حوله وشعوره الإنسانى تجاهها.

ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون، والتقاليد، والميراث الثقافى والتاريخى، ومقدار التقدم العلمى والتقنى، الذى يمتع به شعب معين فى حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعنى كل ما يميز أمة عن أمة، من حيث: العادات، والتقاليد، وأسلوب المعيشة والملابس، والتمسك بالقيم الأخلاقية، ومقدرة الإنسان فى كل حضارة على الإبداع فى الفنون والآداب والعلوم.[١٤٣]

**الحضارة والمدنية:**

الحضارة هى الجهد الذى يُقَدَّم لخدمة الإنسان فى كل نواحى حياته، أو هى التقدم فى المدنية والثقافة معاً فالثقافة هى التقدم فى الأفكار النظرية، مثل: القانون، والسياسة، والاجتماع، والأخلاق وغيرها، وبالتالى يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيراً سليماً.

أما المدنية فهى التقدم والرقى فى العلوم التى تقوم على التجربة والملاحظة، مثل: الطب، والهندسة، والزراعة وغيرها.. وقد سميت بالمدنية لأنها ترتبط بالمدينة، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله، وإخضاع ظروف

---

١٤٣ ) ويكيبديا، الموسوعة الحرة، مادة: حضارة.

البيئة للإنسان.

ولابد للإنسان من الثقافة والمدنية معاً، لكى يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم، وتتحسن حياتهم، لذلك فإن الدولة التى تهتم بالتقدم المادى على حساب التقدم فى مجال القيم والأخلاق، فهى دولة مدنية، وليست متحضرة.... [١٤٤]

شاع فى المجتمعات الغربية أن المسلمين متخلفون، وأنهم أعداء الحضارة، فهم يتعاملون مع الغرب بقصد هدم حضارتهم. وليس هذا قاصراً على فئة معينة، بل انتشرت هذه الفكرة فى كل الطبقات، سواء كانت مثقفة أم غير مثقفة، ومما يزيد هذه الفكرة رسوخاً فى النفوس وسائل الإعلام المختلفة التى لا تترك مناسبة إلا وتتناول فيها وضع المسلمين فى أدنى درجة من درجات سلم الحضارة، فهم يميلون - كما تدعى هذه الوسائل — إلى تدمير كل ما أنتجته الحضارة من تقدم ورقى. وقد أثر هذا على عامة الناس - وخاصتهم أيضاً — فى تلك البلاد، فتعمقت فى نفوسهم تلك الفكرة، إلى درجة أنهم يتصورون أن المسلمين يعيشون فى ظلمات الجهالة، ولا يعرفون من أسباب الحضارة إلا النذر اليسير؛ فقد حدث فى ستينات القرن العشرين، عندما كنت أسكن فى المدينة الجامعية فى برلين، أن وجه إلىّ جار لى فى السكن - وهو ألمانى كان طالباً فى كلية الحقوق — هذا السؤال: هل تسير الجمال فى شوارع القاهرة؟ فأجبته بسخرية: نعم، ولها محطات مثل محطات الأوتوبيس عندكم، يترل المسافر من على ظهرها ويركب آخر ! فقال لى: لماذا تهزأ بى بهذا الأسلوب؟ فقلت له: إذا كنت طالباً فى المرحلة الجامعية، فأنت مثقف ! والمفروض أنك على دراية بما يجرى فى

١٤٤ ) شبكة المعلومات الدولية، موسوعة الأسرة المسلمة.

العالم... ثم تعتقد أن مواصلاتنا فى العاصمة هى الجمال ! فماذا ننتظر من العامة؟ فقال لى: أنتم السبب فى هذا التصور عند مواطنينا، فقلت: كيف؟ قال: لأن كل - أو معظم - إصداراتكم الدعائية لترويج السياحة مرسوم عليها جمل، فماذا تنتظر من إنسان لم ير بلادكم ويقرأ هذه الإصدارات؟

أصبحت كلمة " تخلف " من أكثر الكلمات المستعملة فى أحاديث الناس فى هذا العصر، سواء كانت تلك الأحاديث مجرد " دردشة " فى المجالس والمنتديات، أو محاضرات علمية وندوات ثقافية، يتصدر للحديث فيها جهابذة العلماء وكبار المتخصصين فى شتى مجالات المعرفة.

بل يكاد يحرص كل متحدث - حتى ولو كان أمياً - على ترديدها فى أحاديثه مع الآخرين، وإبرازها بشكل وضح فيما يريد توصيله لهم من رسائل، وما ذاك إلا لِما ترسب فى أذهان الناس من الشعور بالنقص والدونية، لو شعر لحظة بأن هذه الكلمة تنطبق عليه، أو أنه من أفراد شعب تقاعس وتخلف عن ركب الحضارة التى سبقته فيه دول وشعوب متعددة.

ولم تحظ هذه الكلمة بهذا الاهتمام الشديد على مستوى الأفراد فحسب، بل أصبحت مدار السياسات الدولية، ومركز الخطط التنموية على جميع مستوياتها وتشعب مجالاتها، إذ نرى المخططين فى مجال الصناعة يضعون فى اعتبارهم - عندما يرسمون الخطط المستقبلية - درجة تخلفهم فى القدرات والموارد البشرية والمادية عمن سبقهم، ويبحثون عن أحسن السبل وأسرعها للحاق بمن سبقهم - أى للتخلص من التخلف عن غيرهم - أو لتقليل الفجوة بينهم وبين من تفوقوا عليهم فى هذا المجال.

ولا يقتصر الأمر على المهتمين بالمجال الصناعى فقط، بل يشمل جميع المجالات، بما فيها المجال الثقافى، بل إن الثقافة تعتبرنقطة الانطلاق إلى الأمام،

فعليها تدور كينونة الأمة – وكذا الأفراد – وبلورة وضعها فى مجالى: التخلف والتقدم.

" فالتخلف ظاهرة تصيب النمو فى بعض المجتمعات، وتعنى: بطء الحركة فى تحقيق النمو الذاتى لها ( وليس فى اللحاق بغيرها )، وهى تنبع أصلاً من تأثيرات تفاعلية خارجية ( وليست متأصلة فى كيان المجتمع بيولوجياً أو وراثياً ) تتجسد فى سوء استغلال الطاقات المادية الكائنة، وضعف التركيب الاجتماعى، والإطار الثقافى القائمين، وعدم كفاية النظام السياسى فى تحقيق استقرار المجتمع"[١٤٥]

وقد أطلق على هذه المجتمعات اصطلاح الدول المتأخرة ( Backward Countries )، ويقصد به تلك الدول التى لم تصل إلى مستوى مرتفع من التقدم الفنى والاقتصادى، أو هى التى تسودها المستويات المنخفضة من التقدم الاقتصادى والتكنولوجى، بحيث يترتب على ذلك شيوع الفقر بين سكانها.

وعندما ظهر أن الاصطلاح لا يوضح الأبعاد الحقيقية لمشكلة التخلف، استبدل باصطلاح جديد هو الدول المتخلفة ( Underdeveloped Contries)، وهو تعريف ساد الكتابات الاقتصادية مدة طويلة، وعرفت الدول المتخلفة بأنها الدول التى تنخفض فيها مستويات المعيشة عن تلك المستويات السائدة فى أوربا وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلاندا....إلخ. غير أن البعض اعترض على هذا التعريف على أساس أنه تعريف ينقصه الشمول، ومن ثم نادى بأن يطلق على هذه المجموعة من الدول " الدول المتخلفة المتأخرة " حتى يكون التعريف جامعاً مانعاً، ذلك أن مفهوم التخلف إنما ينصرف – فى نظر هؤلاء – إلى الموارد

---

١٤٥ ) الكردى: صـ ١٤.

المادية، وعدم استغلالها استغلالاً كاملاً. أما التأخر فينصرف إلى قدرات القوى البشرية السائدة فى هذه المجتمعات، وعدم استطاعتها القيام باستغلال الموارد المادية استغلالاً منتجاً، ومن ثم لابد من ذكر هاتين الصفتين معاً.

ولم يسلم هذا الاصطلاح من الاعتراض على أساس أنه لايفرق بين الركود والنمو، أضف إلى ذلك أنه يعطى الانطباع العام بسيادة الركود فى هذه المجتمعات، وهو أمر لا يتفق وحقيقة واقع هذه المجتمعات، ولذا حاول بعض الكتاب إحلال اصطلاح الدول المتخلفة باصطلاح الدول النامية، وساعد ازدياد أعضاء الدول المستقلة حديثاً فى المحافل الدولية ( كالأمم المتحدة ) على شيوع هذا الاصطلاح، بحيث أصبح أكثر قبولاً لأسماع أبناء تلك الدول عن اصطلاح الدول المتخلفة، أو المتأخرة. ولما كان النمو حقيقة تشترك فيه كل من الدول المتخلفة والمتقدمة، حاول البعض استخدام اصطلاح: " العالم الثالث ".[١٤٦]

تُصَنَّف البلاد الإسلامية بأنها دول نامية، أو متخلفة فى أدبيات كثير من كتاب الغرب، بل إنهم يرجعون ذلك إلى الإسلام، ويحاولون إفهام شعوبهم بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين لأن الإسلام – كما يزعمون — دين الصحراء والبداوة، ليس فيه ما يدعو أتباعه إلى الإسهام فى بناء الحضارة.

ومن هنا فقد كثر الحديث فى الآونة الأخيرة – على جميع المستويات الثقافية فى العالم الإسلامى — عن التخلف ومظاهره، فظهرت الكتب والمقالات حول هذا الموضوع، بعضها يحلل هذه الظاهرة فى المجتمعات الإسلامية، باحثاً عن أسبابها وملابساتها، شارحاً صورها ونماذجها، متلمساً منافذ التخلص منها برسم مناهج خاصة، وتوضيح أساليب معينة ينبغى على الفرد ممارستها، ووضع

١٤٦ ) محى الدين صـــ ٣، ٣١.

استراتيجية محددة للمؤسسات الرسمية والشعبية تلتزم بها إذا كانت جادة فى دعوتها إلى الأخذ بأسباب التقدم لبناء مستقبل يجد فيه المسلم مكاناً بين الشعوب، التى تأخذ بزمام الحضارة، وتتحكم فى مسار المستقبل، فتوجهه إلى ما يعود على أفرادها بالرخاء الاقتصادى، مع الحفاظ - بقدر الإمكان — على سلامة الفرد نفسياً واجتماعياً.

واهتم البعض الآخر بالجانب الاجتماعى اهتماماً زائداً، فأرجع أسباب التخلف إلى الجانب الروحى فى المجتمع، حيث فرط الفرد فى واجباته الدينية، وتهاون فى الالتزامات التى فرضها الله عليه إزاء نفسه وأسرته ومجتمعه، فنتج عن ذلك إهمال فى العمل، وتفريط فى حقوق الغير، بل اعتداء عليها، مما ساعد على ظهور الكسل، وعدم الالتزام، والغش، والخداع، والنفاق، والمداهنة... حتى فيما يتعلق بصور العبادات، إذ أصبحت رياءً وتظاهراً، بل وسيلة إلى الكسب غير المشروع، وأسلوباً من أساليب التظاهر بالتقوى والصلاح أمام من بيده المنح والمنع، وفى حضرة من يملك المال والعطايا، وتحت إمرته صكوك الحياة، ومراسيم المنصب والسلطان، ولعل أبلغ تعبير عن السلبية التى سادت المجتمعات الإسلامية هو القول السائد: " دعوه يئن "....فقد أصبح مفهوم هذا التعبير " موقفاً كاملاً إزاء العلل والأسقام، فالصوفية كانت طيلة قرون الانحطاط تضمن لمتبعيها حياة روحية عالية، وعلاقات أخوية صادقة، بينما أمواج الظلم والظلمات تتلاطم وتزمجر، ولا أحد يبدى حراكاً، ويبقى المجتمع يئن ولا مغيث.

هذا هو المنهاج: تربية روحية عالية والمجتمع منبوذ يئن، ثم انتقل هذا المنهاج إلى الإسلاميين المعاصرين، إنهم أدركوا وجود مرض، ولكن الشفاء عز. وحين كان يوجه إليهم سؤال: ماذا قدمتم للمريض الكبير؟ يأتى الجواب جازماً: "

دعوه يئن " فإنه جاهلى، سوف نربى أنفسنا، ثم نرى بعدذلك. ويتواصل الأنين... " دعوه بيئن " منهاج وعقية... فلا دراسات ولا تحليلات، ولا إمكان لتطور الأوضاع بناءً على برامج مرحلية، وإنما هو الإعراض والرفض.

" دعوه يئن " إنه موبوء فلا تقربوه.

ولم يتعد الأمر رفع شعارات عامة مثل شعار: " عمَّ الفساد " أو " الإسلام هو الحل "...

والشعارات كالمسكنات تصلح لفترة...ثم تتوقف عن التأثير ويكتشف العليل أن مرضه تفاقم. [١٤٧]

واحتل الهجوم على المؤسسات التنفيذية مساحة كبيرة لدى أصحاب هذه الدعوة، إذ صب كتابها جام غَضَبِهم على الحكام والأمراء، ولم يسلم منهم أحد يتولى أمراً من أمور المجتمع...حتى المعلمون فى المدارس والجامعات، والوعاظ ورجال الدين الذين لم ينهجوا نهجهم فى المعارضة... وتوجيه النقد إلى كل من يعترض طريقهم، أو يخيل إليهم أن فى الهجوم عليه تقرباً إلى الله، ووسيلة إلى بلوغ أهدافهم.

أما الفريق الثالث من المتناولين لهذه الظاهرة - ظاهرة التخلف — بالشرح والتحليل، فهم أولئك الذين يرفعون راية التمرد على الدين، إذ يرجعون أسباب تخلف العالم الإسلامى إلى التمسك بالدين، فهم يرون أن السلفية تشيع فى المجتمع المتخلف، فأفراده يرضخون للتقاليد والأعراف، ويحتمون بالماضى وأمجاده. وتتفاوت درجة تمسكهم بالقديم بمقدار درجة القهر التى تمارس على إنسان العالم المتخلف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء

---

١٤٧ ) بورجا صـ ٣٥.

غوائل الطبيعة، وعنت المتسلطين، وهى لذلك تشكل أولوية دفاعية إزاء تحديات لاقِبَل له بها، تشل مبادراته فى الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلى.

وبعضهم يخفف من لهجته، فيرى أن سبب تخلف المسلمين هو تمسكهم بالتراث - وليس بالمحافظة على الدين -، ورفضهم أساليب الحضارة الحديثة؛ إذ يرفض المتشددون التعامل مع كل مظهر حضارى، ويضعون القيود على سلوك الناس مما يشل حركتهم، ويعوق تقدمهم، ويبعدهم عن الأخذ بأسباب التقدم والرقى، ظناً منهم أن ذلك يحميهم مما يسمونه غزواً يهدد كيانهم، ويمحو هويتهم. فالتمسك بالتراث يحصنهم ضد غزو متسلط خارجى، هذا التسلط يشكل تهديداً كيانياً لمن يغزوهم فى هويتهم القومية... وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهم إلى الوجود. إنه يحمل خطر الاندثار وفقدان الوعى الذاتى. فإذا عزت المقاومة المسلحة، وانتفت إمكانية المجابهة المباشرة، لا يبقى أمام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث، والتمسك بالتقاليد ضد الغزو الفكرى والنفسى، ضد الغزو الحضارى. ويشتد التمسك بهذه التقاليد بمقدار وطأة الاستعمار الحضارى، ويستمر طالما عزت المقاومة المسلحة، وطالت فترة الاستعداد للتحرير. وتخف حدة التمسك بالتقاليد ويزداد الانفتاح على عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان إلى القدرة الذاتية، وبمقدر الشعور بالحماية وانخفاض حدة التهديد الخارجى.[١٤٨]

ولما كان التمسك بالتراث - فى نظر هؤلاء - ليس إلا وسيلة لاحتماء الضعيف الذى يشعر بالتهديد، ويحس بأن كيانه معرض للذوبان فى خضم التيارات المتجددة، ولا ينتج عنه سوى التقوقع على الذات مما يزيد التخلف

---

١٤٨ ) راجع حجازى صـ ١٠٨.

والانحطاط، فهم ينادون برفض كل ما يمت إلى الماضى بصلة، بل يحاربون كل من يتمسك بالتراث، ويسدون الطريق فى وجهه، ظناً منهم أنه سوف يعوق حركة التقدم لو تقلد منصباً يمكنه من ذلك. [١٤٩]

**فهل يعتبر التمسك بالإسلام سبباً فى التخلف؟**

**وهل يؤثر اعتمادنا على التراث فى عرقلة سيرنا على طريق التقدم والازدهار؟**

هذا غير صحيح جملة وتفصيلاً؛ فقد حث الإسلام المسلمين على الإسهام فى الحضارة، وذلك فى أول آية نزلت من القرآن الكريم، إن الآيات الأولى من الوحى الذى نزل على محمد ﷺ تشير إلى سبب هام من أسباب ازدهار الحضارة، وهو ماسوف نبينه فى السطور التالية.

يقول الله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [ العلق: ١ - ٥ ]

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء [١٥٠] فيتحنث فيه - وهو التعبد -

---

١٤٩ ) راجع كتابنا: التخلف فى العالم الإسلامى بين الداء والدواء.

١٥٠ ) غار حراء: كهف صغير بأعلى حراء، وحراء: جبل صغير فى الشمال الشرقى من مكة، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس إليه، ولا يستأنسون به، يمشى الماشى فى طريق متعثر، لا يصل إليه إلا فى مقدار من الزمن، قد يسير فى طريق غير معبد إلى نحو الساعتين. فإذا وصل إلى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع إلى الغار إلا فيما يقرب من ساعة، وإذا ارتفع إليه وجده موحشاً يحس فيه الداخل برهبة ـــ وهو أعلى الجبل، فيزداد المقبل عليه عزلة عن الناس، بل عن الأرض وما فيها، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله، قد ضيق الله ما=

الليالى ذوات العدد، قبل أن يترع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الْمَلَك فقال: إقرأ ! قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: إقرأ ! قلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: إقرأ ! فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم**﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: زَمِّلونى زملونى، فَزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى. فقالت خديجة: كلَّا، والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِب المعدوم، وتَقْرِى الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى - ابن عم خديجة — وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِىَ، فقالت له خديجة: يا ابن عَمِّ ! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخى ! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نَزَّلَ الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أَوَمخرجىّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً،

---

=بينهما، وإذا تجاوزهما، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولاً عن العالم عزلة كاملة.

وإن اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان، لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس، والوحشة من كل شيء إلا الأنس بالله وحده، وكان اختياره بإلهام من الله تعالى ليكون مقدمة جهاده، ويعيش فيه حياتين: أولاهما: رهبة، والثانية: صعبة، وإن كانت نهايتهما سعيدة.

ثم لم يلبث ورقة أن توفى، وفتر الوحى ".[١٥١]

**لماذا طلب جبريل عليه السلام من محمد ﷺ أن يقرأ، وهو يعلم أنه كان أمياً لا يقرأ ولايكتب؟**

**أليس طلب القراءة من أمى يعتبر جهلاً بالمطلوب منه، أوعبثاً من الطالب؟**

حاشا وكلّا أن يكون جبريل جاهلاً أو عابثاً !!

**لماذا كرر جبريل عليه السلام الأمر بالقراءة ثلاث مرات مع ضغطه على محمد ﷺ عقب كل مرة ضغطاً عنيفاً لدرجة أنه أجهده؟**

**ولماذا كرر الوحى فى أول آيات نزلت من القرآن الكريم فِعْل " إقرأ " مرتين لفظاً: فى قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ فِيَ .... اقْرَأْ وَرَبُّكَ ﴾، ومرة بالمعنى فى قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾؛ لأن ما يكتبه القلم فهو مقروء؟**

كان ذلك كذلك لتعليم المسلمين أهمية القراءة، كى يلتزموا بذلك وينشروها فى المجتمع الإسلامى، حتى يشيدوا حضارة تأخذ بأيديهم إلى الرقى والازدهار فى حياتهم فى الدنيا، والأجر والثواب فى الآخرة. فالحضارات لا تقوم إلا بواسطة تسجيل الإبداعات، وكتابة الاكتشافات فى جميع المجالات، سواء كانت على مستوى العلوم التطبيقية، أو فى آفاق الفنون والأداب، لأن البناء الحضارى يقوم على التراكم الثقافى، والتتابع الإبداعى، إذ يعتمد اللاحق على السابق ويبنى عليه ويسمه لمن بعده ليواصل ما يبدعه فى المجالات المختلفة.... وهكذا حتى يواصل الصرح الحضارى، ارتفاعه دون توقف. فلم - ولن - يرتفع بناء حضارى على السرد الشفهى، فكل الحضارات التى قامت على

---

١٥١ ) البخارى جـ ١ صـ ٢٣.

امتداد التاريخ البشرى كان التسجيل - سواء كان بالرسم أو النحت أو بالكتابة أو بأى وسيلة أخرى من وسائل حفظ الإبداعات الإنسانية — هو العمود الفقرى الذى يستند إليه كل ما يبدعه الإنسان وتنجزه الشعوب.

وهذا من أساليب الإعجاز فى القرآن الكريم، إذ أراد الله أن يعلم المسلمين فى هذه الآيات الأولى " فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قُيِّدَت الحِكَم، ولا ضُبِطَت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتُبُ الله المنزلة إلا بالكتابة؛ ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله، ولطيف تدبيره من دليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به، ولبعضهم فى صفة القلم:

وَرَوَاقِمٍ رُقْشٍ كَمِثْلِ أَرَاقِـــمٍ * قُطْفِ الخُطَا أَقْصَى الْمُدَى

سُودِ القَوَائِمِ مَا يَجِدُّ مَسِيرُهَا * إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بِيضُ المُدَى

وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم. [١٥٢]

اهتم المسلمون بالتعليم، بدءاً بالقراءة والكتابة، متتبعين خطى رسول الله ﷺ فى تعامله مع أسرى غزوة بدر، حيث حرر كلُّ أسير علَّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، فكانت هذه الظاهرة هى الانطلاقة الأولى على سلم الحضارة، وظهر ذلك واضحاً فى البلاد التى فتحها المسلمون، حيث انتشرت المدارس منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الإسلامى، من أسبانيا عبر شمال إفريقيا حتى بلاد فارس، والتحق بها الأطفال من سن السابعة، وكانت مواد التعليم فيها: القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم يختار الطالب بعد ذلك مواد أخرى، مثل: تحسين الخطوط، والعلوم الدينية، والحساب، والشعر،

---

١٥٢ ) الزمخشرى جـ ٤ صـ ٧٦٧.

ثم أنشئت فيما بعد مدارس لإعداد الدارسين، لتولى مناصب مختلفة فى أنحاء الدولة، فكان مستواها عالياً.

واختير للتدريس بها علماء مشهورون، وكانت المدرسة النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥م نموذجاً يحتذى فى كل ما أنشئ بعدها من مدارس، سواء فى إعداد سكن خاص للدارسين، أو فى المواد التى كانوا يدرسونها، وهى: العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية، والفقه، والتاريخ، والطبيعة من زاوية اتصالها بالدين. انتشرت المدارس المماثلة لهذه المدرسة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى.

والجدير بالذكر أن المدارس العليا الـــى أنشئت فى قرطبة، و" سيفيلا "، و"توليدو"...بأسبانيا أمدت الحياة الثقافية الأوربية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة، وبدأ هذا بترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، فقد أنشئ لهذا الغرض مدرسة للترجمة فى " توليدو " فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، فضمت مكتبتها العديد من المراجع العربية التى أعدت للترجمة إلى اللاتينية، وكانت اللغة العربية هى لغة المثقفين فى ذلك العصر.[١٥٣]

لم يقتصر المسلمون فى مدارسهم على تدريس العلوم النظرية، بل انفتحوا على كل الثقافات التى سبقتهم فى مجال الحضارة، ينقلون منها ويضيفون إليها حتى شيدوا حضارة عالمية فاقت كل الحضارات التى سبقتها، وذلك لأنها قامت على أساس مادى وروحى - على عكس كثير من الحضارات الإنسانية التى أهملت الجانب الروحى -، فالأخلاق والنزعة العلمية ركيزتان متلازمتان فى بناء الحضارة الإسلامية، انطلاقاً من توجيه القرآن الكريم إلى العلم والابتكار مع

١٥٣ ) راجع كتابنا: الإسلام فى الفكر الأوربى.

الالتزام بالإيمان والأخلاق، فلم يقتصر ابتكار علماء المسلمين على مجال العلوم الدينية، بل أبدعوا كثيراً فى مجال العلوم التجريبية فهم أول من ابتكر الأسلوب التجريبى فى تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وهو ما أدى إلى تأسيس قواعد المنهج العلمى التجريبى الذى مازال العلم المعاصر يسير على هديه. ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم باع طويل فى هذا المجال: الحسن بن الهيثم، وابن النفيس، والخوارزمى، وجابر بن حيان، وغيرهم كثير.

ومن أمثلة ما تقدموا فيه من العلوم:

**الجراحة:** فقد تقدم المسلمون تقدماً كبيراً فى مجال الجراحة، فمارسوا جراحة العظام والسرطان وما تبع ذلك من استحداث مواد وطرق جديدة لخياطة الجروح وتعقيمها فى التخدير أثناء العمليات الجراحية، وأعظم جرَّاح مسلم أنجبته القرون الوسطى هو الطبيب الزهراوى الذى حقق الكثير من الإنجازات الطبية فى هذا المجال، ويعتبر مؤسس المنهجية التى قام عليها هذا النوع المهم من الطب.

**الفلك:** ارتبط الفلك فى حياة المسلمين بكثير من شعائر دينهم، حيث وعت الأمة الإسلامية على اهتمام قرآنى غير مسبوق فى الكتب السماوية الأخرى فيما يتعلق بالفلك والكون المحيط بالإنسان بكل معطياته. ومن الإنجازات الإسلامية بناء المراصد التى كانت مبثوثة فى العالم الإسلامى من أقصاه شرقاً إلى أقصاه غرباً. ويلاحظ أن المسلمين حرصوا على إقامة مراصدهم فى أماكن مرتفعة، لأنها أنسب وأكثر دقة فى رصد الكواكب، ولأنهم بذلك يرتفعون على أى بناء يحجب السماء عنهم، كما يلاحظ ضخامة أجهزتها، لأنها فى رأيهم تعطيهم نتائج دقيقة.

**الجغرافيا:** توصل المسلمون فى هذا المجال إلى تحديد دقيق لدرجات الطول

ودوائر العرض، مكنتهم من ضبط تحديد عرض الأماكن عن طريق قياس ارتفاع النجم القطبى أو الشمس. وقد ظهر فى المسيرة العلمية للجغرافيا الإسلامية أفذاذ من العلماء الموسوعين الذين لم يقتصر جهدهم على علم دون آخر، فكان للجغرافيا من علمهم نصيب، ومن هنا نرى إسهام المسعودى كمؤرخ فى الجغرافيا، وكذلك نرى العالم البيرونى كعالم طبيعيات يسهم فى مجال الجغرافيا، وكذلك الكندى من ضمن إسهاماته الجغرافية الفلكية قوله بأن سطح البحر كروى كاليابسة، أما الإصطخرى، فهو أول عالم جغرافى ذو منهجية واضحة المعالم، فخلف لنا كتابه: " المسالك والممالك " ذكر فيه أقاليم بلاد الإسلام وغيرها، وكان فيه دقيقاً، لم يعتمد على النقل من غيره، وقد أحصى فيه كثيراً من المدن والأنهار والجبال..و.. إلخ.

**الكيمياء:** ولا ننسى أن نشير هنا إلى جابر بن حيان باعتباره مؤسس الكيمياء المنهجية فى الحضارة الإسلامية، وقد اعتمد المسلمون على التجربة وحدها للوصول إلى الحقيقة العلمية، ولذا اهتموا كثيراً بإنشاء المختبرات لإجراء تجاربهم، وكان من هذه المختبرات مختبر لجابر بن حيان، وآخر للرازى. أما بالنسبة للأجهزة الكيميائية التى توصلوا إليها، فمنها جهاز التقطير، كما عرف المسلمون ميزان الماء...

**الفيزياء:** خاض المسلمون غمار هذا العلم ببراعة وذكاء منقطعى النظير، حتى لكأنهم أنشئوا علماً جديداً، فمن إنجازاتهم واكتشافاتهم أنهم بحثوا فى الوزن النوعى للمعادن والسوائل، أما المعادن فكان أول من تطرق إلى وزنها هو: سند بن على، الذى عاش فى خلافة المأمون. كما أن المسلمين استطاعوا قياس الوزن النوعى للسوائل، والذى يعد حتى فى العصر الحديث بوسائله المتطورة أمراً عسيراً.

برع المسلمون فى أنواع كثيرة من الصناعات كالنسيج، والسجاد، والسيراميك والخزف والزجاج، وفن العمارة وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرها.[١٥٤]

أردت بسرد هذه الأمثلة أن أبين كذب ما تدعيه آلات الإعلام فى العالم الغربى من أن المسلمين أعداء الحضارة، فهم يريدون تدمير الحضارة الغربية، لأن دينهم لا يعترف بها. وهذا هراء ! لأن أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى أن أساس بناء الحضارات هو القلم، وتسجيل الابتكارت والاختراعات والإبداعات.... وغيرذلك من أدواتها، حتى يبنى اللاحقون على ما سطره السابقون، فالمسلمون لا يعادون أى حضارة؛ فقد ثبت أنهم بناة حضارة بكل أدواتها، وليسوا أعداء لأى إنتاج بشرى، فقد أخذوا من الحضارات القديم فى اليونان والهند وفارس والروم.... وبنوا عليها، فإذا كان فى الحضارة الحديثة ما يفيد الإنسانية فالمسلمون أسرع الناس إلى قبولها؛ فـ " الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ".

ويكفى المسلمين فخراً أن أول آية نزلت من القرآن الكريم أمرتهم بأن يأخذوا بأسباب الحضارة وازدهارها، ألا وهى: القراءة والكتابة، ففى هذه الآية إعجاز، ليس إعجازاً لغوياً فحسب، ولكنه إعجاز على مستوى الفكرالإنسانى، يفهمه كل إنسان، حتى ولولم يعرف كلمة عربية واحدة، فلو كان القرآن الكريم من عند محمد الأمى، ما اهتدى هذا الأمى إلى هذا الجانب الحضارى الذى لم يدركه أحد إلا فى العصر الحديث، حتى لم يدركه فى العصر الحديث إلا الراسخون فى العلم من المفكرين والباحثين فى الفكر الإنسانى، فهو بهذا دليل

---

١٥٤) www. Islammemo.cc

واضح وحجة دامغة على أنه وحى من الله الذى يحيط بكل شيء علماً، فيعلم ماسيظهر فى المجتمعات الإنسانية فى جميع مجالات الحياة البشرية.

# معجزة القرآن الكريم

# متجددة عبر الزمن

## علمها عند الله

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ لقمان: ٣٤ ]

استأثر الله بخمسة أمور، لم يعطها لأحد، وهى:

- علم الساعة،
- إنزال الغيث،
- علم ما فى الأرحام،
- علم ما سيحدث غداً،
- مكان طلوع الروح.

ليس علم الله قاصرا على هذه الخمسة، بل يعلم -كما قال الرازى — "الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر، وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ وذكر أنه كائن بقوله: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ كأن قائلاً قال: فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب: بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن...( ثم ذكر دليلين )على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ الروم: ٤٩ –

٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [ الروم: ١٩ ]، وقال ههنا: يا أيها السائل ! إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة، والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض، حيث قال: وهو الذى يترل الغيث، وقال: ويحيى الأرض. وثانيها: الخلق ابتداء كما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ الروم: ٢٧ ] وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۖ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ العنكبوت: ٢٠ ] إلى غير ذلك، فقال ههنا: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ ﴾ إشارة إلى أن الساعة، وإن كنت لا تعلمها، لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على **الخلق فى الأرحام**، كذلك يقدر على الخلق من الرحام، ثم قال لذلك الطالب علمه: يا أيها السائل ! إنك تسأل عن الساعة أين مرساها، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها، **فإنك لا تعلم معاشك ومعادك**، ولا تعلم ماذا تكسب غدا..... " [١٥٥]

وقد اتفق العلماء فى تفسير هذه الآية، وبينوا المقصود من هذه المغَيَّبات الخمس، فلم ينفرد أحد منهم برأى مختلف، وخاصة فى بيان معنى إنزال الغيث، وعِلْم مافى الأرحام، على اهنلاف بينهم فى مناهج تفسيرهم، يقول ابن كثير: " هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب.... وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيدا، علم به الملا ئكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب

---

١٥٥ ) الرازى جـ ٢٥ صـ ١٤٤.

غداً فى دنياها وأخراها ( وما تدرى نفس بأى أرض تموت ) فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان، لا عِلْم لأحد بذلك... وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى حسين بن واقد، حدثنى عبد الله بن بريدة، سمعت أبى بريدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ( إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ )، هذا حديث صحيح الإسناد..... كذلك ذكر فى هذا المقام عدة أحاديث رواها كل من: ابن عمر، وابن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس وغيرهم. وكلهم أجمعوا على أن الله هو الذى يترل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام... [١٥٦]

وقد وجه أحد الجمهور سؤالاً إلى المحاضر فى إحدى ندوات مسجد النور بالقاهرة هذا السؤال: كيف نرد على من يعترض على الآية بأن الإنسان استطاع أن يترل المطر عن طريق استخدام بعض الكيماويات، وعلم ما فى الأرحام باستخدام ما يطلق عليه " سونار Sunar "؟ [١٥٧]

---

١٥٦ ) ابن كثير جـ ٥ صـ ١٩٩ – ٤٠٣.

١٥٧ ) أصبح العلم الحديث قادراً على معرفة جنس الجنين قبل الولادة بعدة أشهر بعدة طرق، من بينها السونار، وهناك طرق أخرى، منها: أخذ عينة من دم الأم الذى يحتوى أيضاً على بعض خلايا دم الجنس، ومن ثم تحليل الـ DNA لهذه الخلايا ومعرفة نوع جنس الجنين، بل الأكثر من هذا: يمكن للإنسان اليوم بفضل التقدم الهائل فى علوم الأحياء وعلم الجينات تحديد جنس المولود قبل الإخصاب ( Sex Selection ويمكن تحقيق ذلك بعدة طرق، بل إن قدماء المصريين توصلوا لطريقة، يمكن بواسطتها معرفة نوع الجنين، فلمعرفة ما إذا كانت المرأة حاملاً أو غير حامل، كانوا يبللون بعض حبات من القمح والشعير ببول المرأة المقصودة، فإذا حدث إنبات لكلا النوعين من الحبوب تكون المرأة حاملاً، وإذا نبتت حبات الشعير فقط، فذلك يدل على أن الجنين ذكر، أما إذا نبتت حبات القمح فقط يكون الجنين أنثى،

فرد عليه المحاضر بما ذهب إليه المفسرون بأن الله يعلم ما سيكون عليه الجنين من شقاء وسعادة..... فما كان من السائل إلا أن أبدى عدم اقتناعه بهذا الجواب، الأمر الذى اضطرنى -كمدير للندوة — إلى التعقيب على هذه الإجابة، فقلت: فى الآية خمس مُغَيَّبات، ثلاث منها بأسلوب القصر، وهى: علم الساعة، وما الذى سيكسبه المرء غداً، وفى أى أرض سيموت، وهذه الثلاثة لا يمكن لأحد أن يعلمها، فى أى زمن مهما تقدم العلم و تطورت أساليب الاكتشافات. أما الاثنتان الأخريان، وهما إنزال المطر، وعِلْم ما فى الأرحام، فقد صيغتا بأسلوب الخبر، وهو لا ينفى علم الآخرين بها، لا فى القديم ولا فى الحديث، فمثلاً إذا قلت: عندى الكتاب، أى ليس عند أحد سواك، أما إذا قلت: الكتاب عندى، فيحتمل أن يكون عند أحدغيرى، وهذا ما يُفْهَم من قوله تعالى: ( وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ) فيحتمل أن يتزله آخر، (وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ) فكذلك عِلْمُ الآخر به محتمل.

وهذا من الأسرار الكامنة فى الأسلوب القرآنى، التى لا تنضب عبر القرون والزمان، وهو إعجاز يفهمه كل الناس؛ العربى وغير العربى، فهى تمد من يبحث بما يعرضه على العالم من صلاحية القرآن الكريم لكل معطيات العصور، مهما اختلفت أساليبها، وتعددت مناهجها، وتنوعت طرق التفكير فيها، وتكاثرت صورها وأنواعها.

---

والغريب أن هذه الطريقة القديمة جداً أثبت بعض العلماء الألمان فيما بعد صحتها إلى حدكبير، بعد أن وجدوا أن هرمون " الإستروجين " الذى يخرج فى بول الحامل، له القدرة على إحداث نمو لبعض بذور النباتات، ووجدوا أن النمو الأسرع لحبات القمح عن نمو حبات الشعير ينبئ بولادة الإناث، وأن النمو المتأخر أو البطيء لحبات القمح ينبئ بولادة الذكر، وهو ما توصل إليه قدماء المصريين.